(مارك شاجال .. فنان الواقع والخيال)

(١٨٨٧ - ١٩٨٥)

في صباح جميل رأيت مرة أخرى
أنني لن أنسى من لن أنساه أبداً
ونساء عابرات عيونهن
سببت لي خجلاً شريفاً
فقد تدثرن بضحكاتهن .

في صباح جميل رأيت أحبائي بغير هموم
الرجال لا يحملون أثقالاً
واحد منهم مر
خياله تحول إلى ابتسامة
تضيع في الجدول
رأيت السماء متسعة للغاية
ونظرة الرجال الصافية

obeikandl.com

المجـــــردة مـــــن كـــــل شئ
شاطئ ممتد حيث لا أحد يقترب

في صباح جميـــل بـــدأ حزينـــاً
أسوداً تحت الأشجـــار الخضـــر
لكنه غطس فجـــأة فـــي الفجـــر
وولـــج بغـــتـــة فـــي القـــلـــب

* * * * *

من أعلام الفن الحديث الذين حرروا الرؤية الفنية منذ مطلع هذا القرن وعاصروا أحداثه المصور الروسي الأصل مارك شاجال أحد ضلعي المثلث العالمي الشهير الذي يكون قاعدته الأسباني بابلو بيكاسو ويكون ضلعه الثاني الفرنسي جورج براك ..

وقد أقيم بالقصر الكبير بباريس معرض شامل يضم ٥٠٠ لوحه تمثل مختلف المراحل الفنية والفكرية التي مارسها شاجال .

وللفن مع شاجال قصة حب بدأت وهو بعد تلميذ في المرحلة الأولى بإحدى مدارس مدينته الصغيرة إلى أن التحق بمدرسة ليون باكست بسان بترسبورج وفيها ظل يمارس حبه للرسم إلى جانب ممارسته للرسم نفسه وكان غالبا ما ينحصر في تخطيطات سريعة لرقصات الباليه الروسي الشهير.. كان يرسم بانطباعية مطلقة حاول فيما بعد أن يوظفها في خدمة الواقع حتى تكون لديـــه ما أسماه " بالواقعية الانطباعية " .. وذلك على الرغم من كراهيته الشديدة " لمذهبة " الفن أو إدراجه تحت اتجاه بعينه .. وربما كان هذا هو سر عدم انتمائه إلى الحركة السريالية وإن اعتبره مؤرخو

الفن واحدا من أبرز الأوائل خلال إقامته بباريس من ١٩١٠ إلى ١٩١٣ . يقول شاجال : لدت مرة ثانية في باريس .. وفيها اكتشفت لأول مرة النور والشمس والبهجة والألوان .. اكتشفت الحرية .

وفي عام ١٩١٤ توجه ابن السابعة والعشرين إلى برلين لإقامة أول معرض له .. وما أن وصل إلى العاصمة الألمانية حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى فتوجه مضطرا إلـــى مدينته الصغيرة بروسيا حيث تزوج من خطيبته بيللا .. وبعد ثلاث سنوات قامت الثورة الروسية فشغل منصب مدير الفنون الجميلة وقاد ثورة عارمة استطاع أن يحرك بها الفن الروسي الراكد والأكاديمية التي ظل يعاني منها منذ أن كان طالبا يتلقى دروس الفن كما يتلقى دروس الحساب .. إلا أن الثورة الفنية التي انضم إليها الكثيرون من الفنانين والموسيقيين والكتاب ورجال المسرح والشعراء سرعان ما خفت حدتها وفترت نبرتها بعد أن عادت الأكاديمية تسيطر على الحياة الفنية والأدبية مما اضطر شاجال إلى ترك منصبه والاتجاه إلى موسكو .

ولم تمض خمس سنوات على هذا التحول الاضطراري حتى قرر الهجـــرة إلى فرنسا والاستقرار فيها .. وفي باريس احتفلت به الأوساط الفنية أكثر مما حفلت به روسيا في عيديها القيصري والسوفيتي على السواء، وإن كانت تعتز به اليوم كواحد من ألمع أبنائها الذين حققوا نجاحا باهرا وشهرة واسعة في مجال الفن العالمي .

وفن شاجال عرف في باريس بالنزعة الروحية الأمر الذي جعل السيرياليين يتشككون في تأييده لحركتهم الوليدة ، إلى أن اعترف رائد السيريالية الأول وشاعرها الرسمي أندريه بريتون بصدق شاجال وحسن نولياه على الرغم من أنه ليس سيرياليا بالمعنى المحدد ..

واندلعت نيران الحرب العالمية الثانية فهجر شاجال أوروبا بأكملها إلى الولايات المتحدة وعاش فيها حتى انتهت الحرب فعاد مرة أخيرة إلى فرنسا ولكن دون أن يقيم بباريس .. فقد لزم الصمت والهدوء وآثر الحياة بإحدى قرى الريف الفرنسي الساحر عله يخفف من صدمتين مروعتين ارتطمت بهما حياته نتيجة للحرب اللاإنسانية :

تدمير قوات النازي لمدينته الصغيرة قبتبسك وموت زوجته ورفيقة عمره بيللا ..

وخلال رحلة عمره الشاقة أقام ثلاثة معارض كبيرة وشاملة أولها بباريس عام " ١٩٤٧ " وثانيها بتورينو عام " ١٩٥٣ " وآخرها بالقصر الكبير بباريس حيث عرضت ٥٠٠ لوحة من الزيت والجواش والفلوماستر والسيراميك .. وكان قد أقام من قبل معرضين كبيرين أولهما في مدينة بال بسويسرا عام " ١٩٣٣ " وثانيهما بمدينة نيويورك بالولايات المتحدة عام " ١٩٤٦ " .. وفي عام " ١٩٤٨ " حصل شاجال على جائزة الحفر ببينالي فينسيا الدولي الرابع والعشرين .. وتزوج في عام ١٩٥٢ من فالنتين برودسكي .. وقد صرح في الأيام الأخيرة قائلا :

" لست أخاف الموت ولكني أريد فقط أن أفعل ما أردته ولم أفعله بعد " .

لقد كانت ألوان شاجال قبل أن يستقر في باريس غارقة في القتامة والظلام إلى أن تخلى عنها تماما ليعطي الفرصة للنور يغزو لوحاته بحيث ملأتها أشعة الشمس فسمحت للبهجة والصفاء ممارسة حقهما في الحياة .. تخلى عن القتامة ولكنه لم يتخل عن بيئته وتصوير عمارتها ومبانيها المنتشرة .

وقد قام شاجال بزيارات فنية وروحية لفلسطين وسوريا ومصر أطلق بعدها دعوته الحارة للإخاء والحرية .

أما الحب فقد عبر عنه شاجال بأشخاصه الذين " يطيرون من الفرح " حول قبلة خاطفة في أجواء اللوحة وكأنهم داخل كبسولة فضاء يعيشون حالة انعدام الوزن ، تلك الحالة التي تعتبر من أشد حالات الانفعال سعادة ونشوة.. ولذلك تميزت خطوطه بالتركيز والتجسيد من أجل التأكيد على فكرة ورؤية وحالة انفعالية .. فالزهرة باقة بأكملها وأصابع اليد الواحدة أكثر من خمسة.. ولكنه لم يكن سيرياليا أو تجريديا أو حتى تكعيبيا على الرغم من أن شخوصه وحيواناته ونباتاته وأشيائه غالبا ما تتخذ أشكالا مثلثة ومربعة وأوضاعا مقلوبة وغريبة .. فنراه يلغي وجود البقرة من على الأرض ليضعها فوق السطح ونراه ينزع الكمان من يد الإنسان ليضعه بين يدي الحصان .. وهكذا..

وهكذا أصبح جديرا بشاجال أن تطلق عليه هذه العبارة " شاعر الرسم " وذلك لعميق الشبه بين لوحاته وقصائد كبار الشعراء من السيرياليين بصفة خاصة .. بريتون وأيلولا وأبوللبنير .. هذا التشابه العميق ربما كان مرده إلى تلقائية" شاجال " في الرسم دون التقيد دائما بالفكر .. فالحب الذي يكنه للعالم المحيط به والعالم الذي لا يزال يفتك بالخيال هو الذي جعله يصور كل شئ مقلوبا متجها إما إلى الأرض وإما إلى السماء .

لقد أدخل شاجال البعد الرابع في التصوير وذلك بخلق أشكال لا تنتمي إلـــى الأشياء في انعزالها ولكنها تسبح في مساحات غير محددة .. وكان يريد بذلك العثور على الواقع بعيدا عن العدم .. ولكنه كان يهتم دائما بالواقع الفيزيقي ، وهكذا استحدث ما يمكن تسميته بالواقعية الشاعرية وإن لم يقف

عندها كما لم يقف عند الانطباعية أو التكعيبية أو السيرالية لأنه كان يريد دائما أن ينطلق إلى آفاق رحبة وجديدة .. وفي هذا يقول :

" أريد فنا نابعا من الأرض وليس من الرأس وحده "

وكما أدخل البعد الرابع ابتدع أيضا قواعد فنية جديدة فيما يختص بالمسافات والمساحات والخطوط والألوان وكذلك الموضوعات ..

أما المسافات فهي محددة بخلفيات وأرضيات تخضع لوحدة بصرية وإن كانت تميل للنظرة العقلية .. فإلى جانب المادة المرئية تهئ المسافات أمام الخيـــال فرصة الخوض في الأحلام واستدعاء الذكريات والرغبات لأن وحدة المكان قد حطمت وحدة الزمان فاجتمع الحاضر والماضي والمستقبل في زمن واحد ..

وأما المساحات فواضحة لأنها هي التي تحكم بناء اللوحة وتضم جزئياتهـــا سواء كانت مليئة أو فارغة .. وأما الخطوط فبارزة لأنها هي التي تحدد الفواصل بين المسافات والمساحات حتى لا يضيع ذلك الفارق الدقيق بينهما .. وأما الألوان فصريحة على الرغم من أنها ليست شبيهة تماماً بالواقع المادي ولا هي شبيهة للواقع الفني لأنها قبل كل شئ تعبيرا رمزيا للواقع الخيالي ، كما يحب شاجال أن يسميه ، هذا الواقع الخيالي نفسه هو الذي يشكل الموضوعات التي صورها شاجال في لوحاته ، والتي يدور معظمها حول ذكريات الطفولـــه .. في القرية المهجورة التي يرى فيها الفنان جنته المفقوده .

إن أهم ما يميز فن شاجال هو ذلك الذي يسمى " بالمذهل " ليس فقط فيما يتناوله من موضوعات ولكن في طريقة التناول أو أسلوب التناول ..

لأن المذهل عنده كامن وراء كل ما هو ظاهر .. ولأن المذهل هو المعادل الموضوعي للحلم أو هو الحلم نفسه .

ومع هذا كان فن شاجال شعبيا قدم للعين المبصرة شيئا جديدا يختلف عـــن الواقع والطبيعة ، وإن جمع بين الواقع والخيال في رؤية شعرية .. كمـــا كان فنه عالميا لأنه قدم للنفس البشرية شيئا عظيما يجمع بين الأسطـــورة والدين وروح العصر يقارب بين الشرق والغرب في رؤية شاعـــرية .. فقد كان يتمتع بالقدرة على الحلم في وضح النهار بعد أن يصبـــغ على أحلامه اليقظة تلـــك الرؤيا الواقعية التي تخلق من الحلم والواقع معا ذلك الذي نقول عنه شعرا ..

ولقد تحدد أسلوب شاجال نهائيا في لوحته المسماه " أنا والقرية " التي رسمها عـــام " ١٩١١ " وتعتبر أروع لوحاته على الإطلاق .. تتوسط اللوحه دائرة مركزية تضم جزءا من وجه الفنان وجزءا آخر من فك بقرة .. وكذلك قاعدة ربوة من ربي القرية يظلها السحاب ..

أما هذه الدائرة فقد ارتكزت على قمة غصن مثلث ينحرف نحو فم البقرة .. وحول هذه الدائرة الأساسية بما تستحوذ عليه في داخلها تتناثر تكوينات كثيرة ومختلفة .. امرأة تحلب لبن بقرة صغيرة وقد ظهرت الاثنتان معـــا .. المرأة والبقرة .. داخل فك البقرة الكبيرة .. وفلاح يلتقي على الربوة بامرأة .

إن شاجال يحلم بقريته بأبقارها ومواطنيها .. بحيث يكفي أن يذكره فك بالبقرة كلها مصادقا لرؤية سيكولوجية وليست فيزيقية .

أما الألوان فقد تحددت هي الأخرى وإتحدت بحيث جاءت جميعها مضيئة وزاهية .. فاخضرار الوجه وزرقة الفك يحددان درجات الوردي والأحمر في أعماق اللوحة التي حققت إنسجاما كاملا بين الألوان وأن تميز كل لون على حدة بالانسجام والوضوح .

وترجع أهمية هذه اللوحة ليس فقط إلى تحقيق النضج الكامل في الأسلوب ولكن في الرؤية أيضا .. فتصوير عازف كمان فوق سطح منزل شئ لا يحدث دائما ولكن من الممكن أن يحدث .. أما تصوير امرأة تحلب بقرة داخل فك بقرة أخرى فشئ لا يحدث على الإطلاق .. وهذا ما يؤكد الفصل الكامل بين الواقع والخيال في الوقت الذي يجمع فيه بينهما ..

لقد حطم شاجال بعدي المكان والزمان وإن كان قد حقق الجانب السيكولوجي الذي أهملته التكعيبة بعد إن اكتفت بالتركيز على الواقع الفيزيقي وهذا التقابل بين ما هو فيزيقي وما هو روحي أو الواقع اللاواقع هو نفسه الذي أصبح فيما بعد النموذج الأمثل للسيريالية .

إن الأشكال التي تبدو طفولية لأول وهلة مثلما تبدو أشعار لا فونتين ليست في الحقيقة إلا انغماسا حادا في اللاشعور وطرقا عنيفا على أبواب المجهول .. تماما كما أراد آلان فورنييه أن يبين ذلك من خلال روايته الوحيدة " مون الكبير " .

ولعل هذه العبارة التي تقول :

" إن بيكاسو هو انتصار الذكاء البشري أما شاجال فيمثل عظمة القلب الإنساني " قد اتضحت الآن وقد تتضح أكثر عندما نعلم أن شاجال قد حمل بعد الحرب العالمية الثانية الام العالم أجمع على فرشاته باحثا عن معنى لهذه الآلام .

obeikandl.com

ولعل حصاد رحلة شاجال الشاقة التي انتهت عام ١٩٨٥ هي شاجال نفسه .. ذلك أن حياته هي لوحاته .. تلك اللوحات التي ستبقى في تاريخ الفن شاهدا على هذا العصر بعد أن تحققت من خلالها نظرية " الشعر في التصوير " بمعنى أن الشعر هو الطريق الوحيد إلى الفن التشكيلي بصفة عامة والتصوير بوجه خاص .

وأخيرا نسأل .. ماذا يبقى من شاجال غير فنه ؟

وتجئ الإجابة قاطعة : شاجال نفسه ؟

obeikandl.com